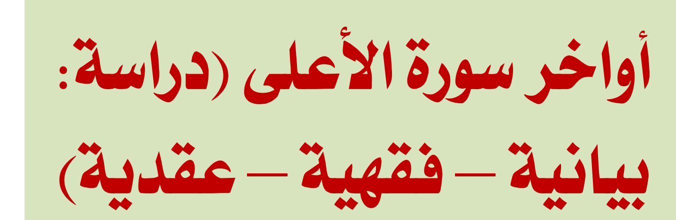
IUGJIS
Vol 26, No 2, 2018, pp 159 - 173

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2017-11-21)، تاريخ قبول النشر (2017-12-30)



أواخر سورة الأعلى (دراسة: بيانية – فقهية – عقدية)

د. حسام الدين محمد احمد بني سلامة [1]،*

[1] وزارة التربية والتعليم– جامعة العلوم الاسلامية – الأردن

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: muhammadefaishat@gmail.com

الملخص:
عَرَضتُ في هذا البحث لخواتيم سورة الأعلى، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها، وبيان ما اشتملت عليه الآيات الكريمات من الأسرار البيانية، والمسائل الفقهية، والقضايا العقدية التي تبني المنهج الإيماني للمؤمنين، وتبين أن الدين الذي جاء به جميع الأنبياء هو دين الإسلام، وأن الأصول العامَّة التي جاءت في هذه الشريعة من الأوامر والنواهي والتوحيد وأصول الأخلاق والفضائل، هي عين ما جاء في صحف ابراهيم وموسى، وهي أصول مشتركة بين جميع الشرائع السماوية.

كلمات مفتاحية: أفلح، تزكى، الشرائع

Surah Al-A'al: A Study of Graphic - Juristic – Contractual

Abstract

I presented in this research the endings of surrat ALa,la and its occasion before and after it, and I illustrated what the Ayas concluded from secerts of statement and the doctrinal issues and the issues of thoughts that build the religious approach of the believers, and it turns out that the religion that came to all the prophets is the religion of Islam, and that the general assets Which came in this law of orders and prohibitions and uniformity and the origins of morality and virtues, is the eye of what was stated in the sheets of Abraham and Moses, which are common assets among all heavenly laws.

Keywords: Successful, Tzaki, Canons.

المقدمة:

الحمد لله الذي نزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، ونصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججًا، وأكرم من شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغِ لها عوجاً، وجعل لمن لاذ به واتقاه من كل ضائقةٍ مخرجاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – خير من صلى لله ودعا. وعلى آله وأصحابه أجمعين الذين كانوا من أولي الأحلام والنهى . وبعد : فهذا بحث وجيز موسوم بـــ (خواتيم سورة الأعلى، دراسة: بيانية – فقهية – عقدية) يتحدث عن سبل تزكية النفوس البشرية وفلاحها، وكيفية تخليص الإنسان من إيثار العاجل على الآجل، كما يتحدث عن علاقة الشرائع السماوية التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام بعضها مع بعض، كما يدرس الأقوال الفقهية الواردة في الآيات الكريمة، كمعنى التزكي، وقراءة القرآن في الصلاة بغير العربية، وغيرها.

وقد جاء اختيار هذا الموضوع لأسباب، أهمها:

1- تأثر بعض المسلمين بشبهة تعدد الديانات، وأقصد بذلك؛ قولهم: إنَّ موسى عليه السلام جاء بدين يسمى اليهودية، هو غير دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. فكان من الواجب على طالب العلم بيان عوار هذه الشبهة وردها بالأدلة العلمية الصحيحة، فدين الأنبياء واحد، وشرائعهم مختلفة.

2- عدم وجود أبحاث مستقلة تبين المسائل الأساسية التي عرضت لها الآيات الكريمات، مع وجود أبحاث درست سورة الأعلى الكريمة كاملة، فأردت تخصيص أواخر السورة الكريمة بالبحث لما فيها من الدرر.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

1- إلى أي مدى أثرت الأساليب البيانية القرآنية في المعاني الفقهية والعقدية في أواخر سورة الأعلى؟

2- هل ورد في الآيات الكريمات ما يشير إلى الاشتراك في الأصول العامة بين الرسالات السماوية؟

3- هل يوجد في الآيات الكريمات ما يشير إلى جواز قراءة القرآن الكريم في الصلاة باللغة الفارسية، أو بغيرها من اللغات الأخرى غير العربية؟ أم أن الأمر خلاف ذلك؟

أهمية الدراسة:

تتضح أهمية الدراسة في أمور كثيرة، منها:

1- بيان دور الأساليب البيانية في الترجيح بين الآراء الفقهية.

2- بيان أن الأصول العامة لدعوة جميع الأنبياء واحدة، وأنه يجب على من آمن بموسى عليه السلام، أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم.

منهجية الدراسة:

تقوم منهجية الدراسة على المرتكزات الآتية:

1- المنهج الاستقرائي : وذلك من خلال تتبع جميع الموضوعات التي احتوتها الآيات الكريمة.

2- المنهج التحليلي: وذلك من خلال تحليل أقوال العلماء في المسائل البيانية والفقهية والعقدية التي استُنتِجت من الآيات الكريمة.

3– المنهج النقدي: وذلك من خلال نقد الآراء العلمية المعروضة في البحث.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتقصي باستخدام الشبكة العنكبوتية، ومراكز الدراسات الإسلامية عامَّة، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية خاصّة، لم أعثر على أي دراسة مستقلَّة تبحث في خواتيم سورة الأعلى من النواحي البيانية والفقهية والعقدية، وقد جاءت الدراسات تبحث في سورة الأعلى بشكل عام، مثل كتاب "سورة الأعلى، دراسة تحليلية وموضوعية" للباحث: إيهاب عبده محمد باقي، وقد أجاد وأفاد، ولكنه عندما وصل إلى خواتيم السورة تحدث عنها بأسلوب وعظي في صفحات قليلة جدًا.

خطة البحث

المقدمة:

التمهيد، وفيه بيان لفضل السورة الكريمة، وبيان سبب نزولها.

المبحث الأول: مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها.

المطلب الأول: مناسبة الآيات لما قبلها.

المطلب الثاني: مناسبة الآيات لما بعدها (سورة الغاشية)

المبحث الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

المطلب الأول: قوله تعالى: "قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى"

المطلب الثاني: قوله تعالى: "بل تؤثرون الحياة * الدنيا والآخرة خير وأبقى"

المطلب الثالث: قوله تعالى: "إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى"

الخاتمة، وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

قائمة المراجع والمصادر.

التمهيد:

قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى، صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى} [سورة الأعلى: 14-19]

هذه الآيات الكريمات هي خواتيم سورة الأعلى، وفيها دلالات تحمل في مضامينها الأحكام الحكيمة والحِكم البالغة، ومن المناسب في بداية هذا البحث أن أتحدث عن فضل السورة الكريمة وسبب نزولها.

فضلها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد في ركعة ركعة". أخرجه الترمذي والنسائي. وعن عبد العزيز بن جريج قال: سألنا عائشة بأي شيء كان يوتر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالت كان يقرأ في الأولى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١] ، وفي الثانية بـــ {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١] ، وفي الثالثة بـــ {قُلْ هُوَ اللَّـــهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] و (المعوذتين)[1].

وفي مضامين هذه الأحاديث الشريفة ترغيب للمسلمين بقراءة هذه السورة المباركة وتدبرها، خاصَّة وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه السورة في كل يوم في صلاة الوتر، ولا يكون ذلك إلا لحكم بالغة، ومنها تدبر ما في هذه السورة من قواعد وركائز.

سبب نزولها:

رَوَى عَطَاءٌ عن ابن عباس قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: كَانَ بِالْمَدِينَةِ مُنَافِقٌ كَانَتْ لَهُ نَخْلَةٌ بِالْمَدِينَةِ، مَائِلَةٌ فِي دَارِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، إِذَا هَبَّتِ الرِّيَاحُ أَسْقَطَتِ الْبُسْرَ وَالرُّطَبَ إِلَى دَارِ الْأَنْصَارِيِّ، فَيَأْكُلُ هُوَ وَعِيَالُهُ، فَخَاصَمَهُ الْمُنَافِقُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُنَافِقِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ نِفَاقَهُ، فَقَالَ: [إِنَّ أَخَاكَ الْأَنْصَارِيَّ ذَكَرَ أَنَّ بُسْرَكَ وَرُطَبَكَ يَقَعُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيَأْكُلُ هُوَ وَعِيَالُهُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ أُعْطِيَكَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ بَدَلَهَا [؟ فَقَالَ: أَبِيعُ عَاجِلًا بِآجِلٍ! لَا أَفْعَلُ. فَذَكَرُوا أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَعْطَاهُ حَائِطًا مِنْ نَخْلٍ بَدَلَ نَخْلَتِهِ، فَفِيهِ نَزَلَتْ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَنَزَلَتْ في المنافق– وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى"[2].

هذه هي الرواية المشهورة عند المفسرين في سبب نزول الآيات الكريمة، والحق أنني لم أجد هذه الرواية في المصنفات الحديثية ولا في كتب التفسير التي تروي بالأسانيد، كتفسير الطبري، وابن كثير، والدر المنثور للسيوطي، والله أعلم بصحتها.

المبحث الأول: مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها:

المطلب الأول: مناسبة الآيات لما قبلها:

إذا أمعنت نظرك في الآيات الكريمات تجد أنها بضمها إلى ما قبلها تعالج أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة للبشرية، فقد رسمت السبيل للسعادة المنشودة في الدنيا والآخرة، وحذرت من طريق الشقاوة الذي يوقع الإنسان في المهالك في الدنيا

1 [أبو داود: سنن أبي داود/الصلاة/ ما يقرأ في الوتر، 63/2: رقم الحديث 1424، وقال المحقق: إسناده صحيح]. و[الترمذي: سنن الترمذي/ الوتر/ مايقرأ في الوتر، 326/2: رقم الحديث 463، وقال الألباني في تعليقه: حديث صحيح].

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج22/20).

والآخرة، قال الشنقيطي رحمه الله: "وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى: {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى} [سورة الأعلى: 10 – 12] ، وبعدها {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى: 14-15]، فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة[1] إلى قسمين: فقال: {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى} فينتفع بالذكرى وتنفعه، {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} فلا تنفعه ولا ينتفع بها، ثم جاء الحكم بالفلاح: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} أي: من يخشى {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} ولم يغفل عن ذكر الله تعالى"[2].

ويتراءى لي أن المناسبة بين الآيات الكريمات وما قبلها جلية وواضحة؛ لأن الله تعالى لما ذكر وعيد الأشقياء الذين أعرضوا ولم يتذكروا، وغفلوا عن النظر في دلائل وحدانية الله سبحانه وتعالى، أتبع ذلك بالوعد لمن تذكر وطهر نفسه من الشرك، بالفوز بالفلاح الدنيوي والأخروي.

كما أن للآيات الكريمة ارتباطًا وثيقًا بأول السورة الكريمة، قال البقاعي رحمه الله تعالى: {مَنْ تَزَكَّى} أي: أعمل نفسه في تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال والأموال وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها، وذلك هو التسبيح الذي أمر به أول السورة وما تأثر عنه، من عمل هذا فهو الأسعد"[3].

المطلب الثاني: مناسبة الآيات لما بعدها (سورة الغاشية)

الغاشية من أسماء يوم القيامة، وهي بدايتها، وقد جاء الكلام في آخر سورة الأعلى في الحث على العمل للدار الآخرة وبيان أفضليتها على الدنيا؛ لأنها باقية والدنيا زائلة، فناسب أن يأتي الحديث بعد ذلك مباشرة عن الآخرة التي صورتها سورة الغاشية أحسن تصوير، وبينتها أظهر بيان؛ فقد ذكرت السورة ما أعدَّ الله سبحانه وتعالى فيها للأتقى والأشقى، قال البقاعي رحمه الله: "لما ختمت (سبح) بالحث على تطهير النفوس عن وضر الدنيا، ورغب في ذلك بخيرية الآخرة تارة والاقتداء بأولي العزم من الأنبياء أخرى، رهب أول هذه من الإعراض عن ذلك مرة، ومن التزكي بغير منهاج الرسل أخرى، فقال تعالى مذكراً بالآخرة التي حث عليها آخر تلك مقرراً لأشرف خلقه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن ذلك أعظم في تقدير اتباعه وأقعد في تحريك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول: (هل أتاك) أي جاءك وكان لك وواجهك على وجه الوضوح يا أعظم خلقنا (حديث الغاشية) أي القيامة التي تغشي الناس بدواهيها وشدائدها العظمى وزواجرها ونواهيها، فإن الغشي لا يكون إلا فيما يكره"[4].

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهم الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح تقدس الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها، فقال لنبيه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هل أتاك) يا محمد (حديث الغاشية) وهي القيامة، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم"[5].

وأقول: يتضح من كلام البقاعي رحمه الله، وما نقله عن أبي جعفر رحمه الله، أن سورة الغاشية جاءت لتفصيل ما أجمل في سورة الأعلى من صفات المؤمن، والجنة التي أعدَّها الله تعالى للمؤمنين، والكافر، والنار التي أعدَّها الله للكافرين.

1 المقصود بأمة الدعوة: كل من أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم من الناس كافة، أمَّا |أمة الإجابة: فهم أتباعه المؤمنون به.
2 الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج505/8-506).
3 البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ج403/2).
4 البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ج1/22-2).
5 أبو جعفر ابن الزبير، البرهان في ترتيب سور القرآن (ص362).

المبحث الثاني: تفسير الآيات الكريمة.

المطلب الأول: قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى: 14-15]

بدئت الآيات الكريمة بالحديث عن مسألة يقينية مسلَّمة لا تحتمل النقاش ولا المعارضة، وهي أن الفوز والفلاح حليف من وحَّد الله سبحانه وتعالى، وطهَّر قلبه من الشرك، وأدى ما عليه من الواجبات، وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة بحرف (قد) الذي يفيد التحقيق، مع الفعل الماضي (أفلح) الدال بمادته وصيغته على الفوز؛ فهو يدل على تحقيق الأمر وثبوته، وكأن الفلاح قد حصل.

والحق أن الفلاح كلمة جامعة لكل خير، فكل فوز بمطلوب ونجاة من مرهوب يسمى فلاحًا، وقال بعض العلماء أن الفلاح المقصود بالآية هو الفوز بالجنة، قال القرطبي رحمه الله: " قد أفلح، أي: قد صادف البقاء في الجنة"[1] والذي أراه: أن هذا جزء من كل، والفلاح أعم من ذلك؛ إذ يشمل خيري الدنيا والآخرة، والتي أعظمها دخول الجنة، والله تعالى أعلم.

وجاء قوله تعالى: {مَنْ تَزَكَّى} بهذه الصيغة؛ ليعطي معنى عظيما، و(مَنْ) يأتي معها المفرد مراعاة للفظها؛ لأن مسألة التزكية مسألة فردية، فكل إنسان يتحمل ذلك في مقاومة النفس والهوى، ومع الجمع مراعاة لمعناها؛ لأنها من ألفاظ العموم، ومعنى قوله تعالى: {مَنْ تَزَكَّى} أي: من تطهر؛ لأن المعنى العام للزكاة والتزكي هو الطهارة والتطهر، وفي المقصود الاصطلاحي لقوله تعالى: {مَنْ تَزَكَّى} خمسة أقوال: "أحدها: من تطهَّر من الشرك بالإيمان، قاله ابن عباس. والثاني: من أعطى صدقة الفطر، قاله أبو سعيد الخدري، وعطاء، وقتادة. والثالث: من كان عمله زاكياً، قاله الحسن، والربيع. والرابع: أنها زكوات الأموال كلّها، قاله أبو الأحوص. والخامس: تكثَّر بتقوى الله"[2].

والذي يلوح لي – والله أعلم – أن جميع هذه الأقوال تدل على المعنى العام للتزكية، وهو الطهارة، فيدخل في ذلك طهارة القلب من الشرك والشك والنفاق، وطهارة النفس من الشح والبخل والغل والحسد، وطهارة اللسان والجوارح عن العدوان.

خاصة إذا عرفنا أن التزكية تكون في حق الله تعالى، وذلك في الطهارة من الشرك والنفاق، مع العمل على تكثير التقوى، وفي حق الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك باتباع سنته، وفي حق عامة الناس، فيطهر قلبه من العداوة والبغضاء لهم، ويطهر جوارحه فلا يعتدي عليهم، ويطهر لسانه فلا يؤذيهم.

وأما القول بأن معنى { تَزَكَّى} أي: أدى زكاة ماله، فهو وإن كان لا يخرج عن المعنى العام للتزكية، وهو الطهارة؛ إذ إن الزكاة تطهر المال، إلا أن تخصيص هذا المعنى في هذا الموضع بعيد، فالحديث هنا عن التزكية وليس عن زكاة المال بمعناها المخصوص، وهو اخراج مقدار معين من المال عند بلوغ النصاب وحلول الحول، ويُدفع إلى الأصناف الوارد ذكرها في القرآن الكريم، وفي هذا مخالفة صريحة لاستعمال القرآن الكريم للفظ (تزكى)، قال ابن عادل في اللباب: " اللفظ المعتاد أن «يقال» في المال: زكَّى، ولا يقال: تزكَّى"[3].

1 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج21/20).
2 ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (ج432/4-433).
3 ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (ج285/20).

ناهيك أن الترتيب المعهود في القرآن الكريم هو تقديم الصلاة على الزكاة، وليس العكس، مما جعل بعض العلماء كالإمام الرازي رحمه الله يرُدُّ القول بأن معنى تزكى هنا أي أدى زكاة ماله[1]

ومع أن أصحاب الرأي القائل بأن معنى التزكية في الآية الكريمة هو زكاة المال قد استندوا إلى بعض الروايات التي تشير إلى هذا المعنى، إلا أنها لا تخلو من الضعف، حيث استدلوا بما روي عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ يَوْمَ الْفِطْرِ، قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ، وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: 14–15]، وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُ رَوَاهُ بِهَذَا اللَّفْظِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ، وَلَا نَعْلَمُ حَدَّثَهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ إِلَّا ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَلَا حَدَّثَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو إِلَّا كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ"[2]. وهو حديث ضعيف جدا، ففيه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، قال عنه أحمد بن حنبل: "منكر الحديث ليس بشيء" وقال ابو زرعة: "واهي الحديث"[3]

وسواء قلنا أنَّ الزكاة هنا هي زكاة المال أو زكاة الفطر –كما سيأتي بيانه– فإن كلا القولين لا يتناسب مع كون السورة مكية بالإجماع، وإنما فُرضت زكاة الفطر وزكاة المال بالمدينة.

ومعنى قوله تعالى: {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ} أي: ذكر الله، فما سبب ذكر الاسم هنا؟ ولماذا لم يقل: وذكر الله؟ السبب والله تعالى أعلم؛ ليكون الذكر باللسان والقلب وليس بالقلب فقط، قال البقاعي في النظم: " وإذا ذكر اللفظ وهو الاسم انطبع في قلبه ذكر المسمى"[4] ولو قال: وذكر الله. أو: وذكر ربه. لاحتمل الأمر اقتصار الذكر على ذكر صفات الله في القلب فقط.

وفي قوله سبحانه: {فصلى} ثلاثة أقوال جمعها ابن الجوزي رحمه الله، وهي: "أحدها: أنها الصلوات الخمس –وهذا الذي رجحه ابن الجوزي– والثاني: صلاة العيدين، والثالث: صلاة التطوع"[5].

والصحيح والله تعالى أعلم أن الصلاة المقصودة في الآية الكريمة هي الصلوات الخمس، ولا مانع من دخول صلاة التطوع في معناها؛ لأنها من جنس الصلوات الخمس قياما وركوعا وسجودا وجلوسا وذكرا، لا فرق بينهما إلا في النية، أما صلاة العيدين فالقول بتخصيصها في معنى الآية الكريمة بعيد جدا؛ وذلك لضعف الأحاديث التي تدل على ذلك –كما مر معنا في معنى التزكي– هذا أولا، وأما ثانيا: فلأن السورة مكية على الراجح من أقوال العلماء، وهم الجمهور، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: " قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما قدم حتى قرأت: سبح اسم ربك الأعلى في سور من المفصل"[6] وفي رواية أخرى في البخاري أيضا عنه رضي الله عنه قال: "تعلمت سبح اسم ربك الأعلى قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم"[7] قال الثعلبي رحمه الله معقبا على القول بأن المقصود

1 الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (ج136/31).
2 [البزار: مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، مسند عمرو بن عوف، 313/8 حديث رقم 3383].
3 ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (ج154/7).
4 البقاعي، نظم الدرر (ج403/21).
5 ابن الجوزي، زاد المسير (ج433/4).
6 [البخاري: صحيح البخاري، تفسير القرآن/ لتركبن طبقا عن طبق، 168/6: رقم الحديث 4941].
7 [البخاري: صحيح البخاري، فضائل القرآن/ تأليف القرآن، 185/6: رقم الحديث 4995].

بالصلاة في الآية زكاة الفطر: " قلت: ولا أدري ما وجه هذا التأويل، لأن هذه السورة مكيّة بالإجماع[1] ولم يكن بمكّة عيد، ولا زكاة فطر والله أعلم"[2].

ومع أن الخازن رحمه الله أجاب على هذا الاعتراض بقوله: " فإن قلت فما وجه هذا التأويل، وهذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر. قلت: يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم، كما قال: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ} [البلد: 2] وهذه السورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح، وكذا نزل بمكة: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45]، وكان ذلك يوم بدر. قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم يثب في الدرع، ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر. ووجه آخر وهو أنه كان في علم الله تعالى أنه سيكون ذلك فأخبر عنه"[3].

والذي يلوح لي أن ما أجاب به الخازن رحمه الله يُناقش، وذلك أن الآية الكريمة تتحدث عن الصلاة، ومعنى الصلاة ماثل في أذهان الصحابة رضوان الله عليهم، فلا داعي للقول بأن النزول هنا سابق للحكم، وأما قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45] فهو حديث عن واقعة مستقبلية لا تُعرف ماهيتها ولا يُعرف وقتها، أما الصلاة المذكورة في الآية في معروفة بكيفيتها قبل نزول الآية، والأذهان منصرفة إليها، ولا يوجد قرينة تصرف المعنى عن الظاهر.

ثم أننا لا نسلم أن معنى قوله تعالى: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ} [البلد: 2] أي: يوم فتح مكة، قال الامام الرازي رحمه الله: " فأما قوله: "وأنت حل بهذا البلد" فالمراد منه أمور أحدها: وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به، كأنه تعالى عظم مكة من جهة أنه عليه الصلاة والسلام مقيم بها وثانيها: الحل بمعنى الحلال، أي أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات، ثم إنهم مع ذلك ومع إكرام الله تعالى إياك بالنبوة يستحلون إيذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك، فأنت حل لهم في اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك، وثالثها: قال قتادة: وأنت حل أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له"[4] وقد يكون المعنى الأول هو الأقرب للصواب؛ لأنه المعنى الماثل في أذهان أذهان المخاطبين.

وأما قوله: " أنه كان في علم الله تعالى أنه سيكون ذلك فأخبر عنه" فلا حاجة لهذا التأويل، خاصة أننا لم نصرف معنى الصلاة عن المعنى العام المشهور حتى نفترض هذا الافتراض، خاصة أن فيه تكلف ظاهر وفصل زماني بين نزول الآية ووقت وقوع مضمونها دون حاجة لهذا التكلف، وإذا فُتح باب التأويل بهذه الطريقة على مصراعيه، فإن المفاسد ستكون كبيرة، وسيجد كل صاحب معنى فاسد لنفسه فسحة من خلالها، وإلا فإن كل شيء في الوجود مما لم يكن بعدُ، يعلمُ الله تعالى أنه سيكون.

كما أنه من المستبعد أن يخاطبنا الله تعالى بما نجهل واللفظ يحتمل ما نعلم، فالمسلمون عند نزول الآية يعلمون معنى التزكي، وهو التطهر، وهم مأمورون به، خاصة في العهد المكي وقت نزول الآية، وكذلك يعلمون معنى الصلاة، وقد فُرضت عليهم، فما الداعي لهذا التأويل.

1 دعوى الإجماع هنا لا تصح، فقد روي القول بمدنية السورة عن جماعة من السلف، قال أبو عمرو الداني رحمه الله: " مكية، وقال جويبر عن الضحاك: هي مدنية" انظر: أبو عمرو الداني، البيان في عدِّ آي القرآن (ص271) وقال ابن عطية: " وهي مكية في قول الجمهور، وحكى النقاش عن الضحاك أنها مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعا إليه قول من قال: إن ذكر صلاة العيد فيها" انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ج468/5).
2 الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (ج 185/10).
3 الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (ج418/4).
4 الرازي، مفاتيح الغيب (ج164/31).

فتبين من هذا كله أن المقصود من الصلاة في قوله: "فصلى" الصلوات الخمس وما يتبعها من سنن رواتب ونوافل مسنونة.

ولا يخفى علينا هنا أن بعض المفسرين قال بأن معنى قوله تعالى: "وذكر اسم ربه" أي: كبَّر لافتتاح الصلاة، وقد نتج عن هذا القول اختلاف العلماء في وجوب تكبيرة الافتتاح للصلاة، قال الرازي رحمه الله: " الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بها على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة[1]، قال: لأن الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعي المغايرة، واحتج أيضا بهذه الآية على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه وأجاب أصحابنا بأن تقدير الآية، وصلى فذكر اسم ربه ولا فرق بين أن تقول أكرمتني فزرتني وبين أن تقول زرتني فأكرمتني، ولأبي حنيفة أن يقول: ترك العمل بفاء التعقيب لا يجوز من غير دليل والأولى في الجواب أن يقال: الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس في الآية بيان أن ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح. فلعل المراد به أن من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى فعل الصلاة، فحينئذ يأتي بالصلاة التي أحد أجزائها التكبير، وحينئذ يندفع الاستدلال"[2].

وقد أجاد رحمه الله وأفاد في هذا الجواب النافع الماتع؛ لأن الخلاف في هذه المسألة مبني على تخصيص عموم الآية الكريمة بغير دليل، فالذكر في الآية عام يشمل الذكر القلبي واللساني، ولا دليل على تخصيصه بتكبيرة الافتتاح.

وقد وصف ابو حيان رحمه الله الاحتجاج بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح بقوله: "وهو احتجاج ضعيف"[3].

وفي نهاية الحديث عن الآيتين الكريمتين لا بدَّ من الوقوف على مسألتين:

الأولى: حول سرِّ الترتيب العجيب بين الآيتين، وهذا ما أوضحه الإمام الهمام فخر الدين الرازي رحمه الله حيث قال: "مراتب أعمال المكلف ثلاثة أولها: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب وثانيها: استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه وثالثها: الاشتغال بخدمته. فالمرتبة الأولى: هي المراد بالتزكية في قوله: قد أفلح من تزكى. وثانيها: هي المراد بقوله: چ □ □ □ چ [الأعلى: ١٥] فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة. وثالثها: الخدمة وهي المراد بقوله: فصلى فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه، لا بد وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع"[4].

الثانية: حول وجه الجمع بين قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) [الأعلى: 14] وقوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) [الشمس: 9] مع قوله تعالى: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى) [النجم: 32] والصحيح أنه لا تعارض بين الآيات الكريمة، ففي الآيتين الأولى والثانية يُخبر الله سبحانه وتعالى عن فوز من أصلح نفسه وطهرها من الشرك والمعاصي والأمراض القلبية والأخلاق السيئة، وفيها أيضا دعوة للناس وتحفيز لهم للأخذ بأسباب تزكية النفس وتطهيرها، والتزام الأعمال الموصلة لذلك، وفي الآية الأخيرة نهي عن مدح النفس وتعظيمها والتفاخر بأعمالها، ونهي عن تزكية النفس بدعوى اللسان فقط.

المطلب الثاني: قوله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} **[الأعلى: 16-17]**

مناسبة هاتين الآيتين الكريمتين لما قبلهما، أنه سبحانه وتعالى لمَّا بيَّن طريق الفلاح في الآخرة وهو العمل على تزكية النفس وطهارتها والمداومة على العبادات المفروضة والمسنونة، جاء الحديث بعدها عن صفة من صفات البشر التي تمنعهم من

1 انظر: الجصاص، شرح مختصر الطحاوي (ج5/2). والكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (ج114/1).
2 الرازي، مفاتيح الغيب (ج136/31).
3 أبو حيان، البحر المحيط في التفسير (ج458/10).
4 الرازي، مفاتيح الغيب (ج31/ 135-136).

العمل على تزكية نفوسهم واصلاحها، والسعي في نجاتها، ألا وهي إيثار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، وهذا الإيثار إما أن يكون جزئيا؛ كما هو الحال عند بعض المؤمنين، وإما أن يكون كليا كما هو حال الكافرين.

بدأت الآية الكريمة بحرف (بل) الذي يكون للإضراب، قال ابن عاشور رحمه الله: "وحرف بل معناه الجامع هو الإضراب، أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد بل فهو إذا عطف المفردات كان الإضراب إبطالا للمعطوف عليه: لغلط في ذكر المعطوف أو للاحتراز عنه فذلك انصراف عن الحكم. وإذا عطف الجمل فعطفه عطف كلام على كلام وهو عطف لفظي مجرد عن التشريك في الحكم ويقع على وجهين، فتارة يقصد إبطال معنى الكلام نحو قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ) [المؤمنون: 70] فهو انصراف في الحكم، وتارة يقصد مجرد التنقل من خبر إلى آخر مع عدم إبطال الأول نحو قوله تعالى: (وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) [المؤمنون: 62، 63] . فتكون بل بمنزلة قولهم «دع هذا» فهذا انصراف قولي. ويعرف أحد الإضرابين بالقرائن والسياق، وبل هنا عاطفة جملة عطفا صوريا فيجوز أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنبين لها، إلى ذكر سبب إعراض المتجنبين وهم الأشقون بأن السبب إيثارهم الحياة الدنيا"[1]

إذا فالانتقال هنا لبيان حال الإنسان الذي ديدنه تقديم العاجل على الآجل، فيقدم الدنيا ويؤثرها على الآخرة، ويبدو – والله أعلم– أن في الآية عتابا لمن يفعل ذلك، كما أن فيها تعجبا من فعله هذا، إذ كيف يقدم الدنيا فقط لكونها عاجلة وحاضرة، كما قال سبحانه وتعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [آل عمران: 14]، فيؤثر الدنيا العاجلة على الآخرة الآجلة، مع كون هذا العاجل فيه من الصفات ما يجعل الإنسان العاقل يزهد فيها ولا يرضى بتقديمها؛ فهي دنيا ناقصة مصيرها إلى الفناء والزوال، والآخرة باقية دائمة، نعيمها لا ينقص ولا يفنى ولا يزول، كما أن الدنيا لاتخلو من الحزن والكدر، فلا فرح يدوم ولا سعادة تبقى، أما الآخرة فالفرح فيها باقٍ والسعادة دائمة، فالفرق بينهما كبير والبون شاسع، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ – وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ – فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟"[2].

ويُفهم من مجيء الفعل {تُؤْثِرُونَ} بصيغة المضارع، أن إيثارهم الدنيا على الآخرة صفة مستمرة في بني الإنسان؛ لأن المضارع يدل على التجدد والاستمرارية، مع أن الدنيا دنيا زمنا ووصفا، قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: "، أما كونها دنيا زمناً فلأنها سابقة على الآخرة فهي متقدمة عليها، والدنو بمعنى القرب. وأما كونها دنيا ناقصة فكذلك هو الواقع فإن الدنيا مهما طالت بالإنسان فإن أمدها الفناء، ومنتهاها الفناء، ومهما ازدهرت للإنسان فإن عاقبتها الذبول"[3]

وفي قوله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، التفات من الغيبة في قوله چ   چ إلى الخطاب في قوله: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، والسبب في هذا الالتفات هو: "لتشديد التوبيخ في حق الكفرة وتشديد العتاب في حق المسلمين"[4]

وقد قرئت كلمة {تُؤْثِرُونَ} بالتاء، وقرأ أبو عمرو "يؤثرون"[1]، "فعلى قراءة "تؤثرون" يكون الخطاب موجهًا للمؤمنين، فالمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة هوى، وعلى القراءة الياء يكون الخطاب موجه للكفار الأشقياء، فالكافر يؤثر الدنيا إيثار

1 ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج289/30).
2 [مسلم: صحيح مسلم، صفة الجنة والقيامة/ فناء الدنيا، 4/ 2193، رقم الحديث 2858].
3ابن عثيمين، تفسير جزء عم، إعداد (ص169-170).
4 الأرمي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (ج367/31).

من لا يرى الآخرة"[2]، وقال بعضهم: "المخاطبون بقراءة "تؤثرون" بالتاء هم الخلق الذين جُبلوا على حب الدنيا"[3]، وعلى هذا يكون الخطاب بقوله: "تؤثرون" عاما للمسلمين والكافرين، كلٌّ بحسب إيثاره للدنيا.

المطلب الثالث: قوله تعالى: {إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ} **[الأعلى: 18-19]**

بدأت الآية الكريمة بـــ (إنَّ) المؤكدة، وهي أم المؤكدات، وقد دخلت على اسم الإشارة (هذا) الدال على القرب، وزيادة في التوكيد جاءت لام التوكيد في قوله: (لفي) وفي هذا النظم خروج عن مقتضى الظاهر، إذ المسألة لا تحتاج إلى مؤكدات، وإنما جاءت هذه المؤكدات للرد على الذين يشككون بعلاقة القرآن الكريم بما في صحف إبراهيم وموسى من أصول الآداب والأخلاق.

قال البقاعي رحمه الله: "ولما كانت هذه النتيجة – التي هي الفلاح بالتزكية وما تبعها – خالصة الكتب المنزلة التي بها تدبير البقاء الأول، وصفها ترغيباً فيها بوصف جمع القدم المستلزم للصحة بتوارد الأفكار على تعاقب الأعصار، لأن ما مضت عليه السنون ومرت على قبوله الدهور تكون النفس أقبل للإذعان له وأدعى إلى إلزامه، وأفاد مع القدم أن المنزل عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بدعاً من الرسل عليهم الصلاة والسلام بل هو على منهاجهم، فرد رسالته من بينهم لا يقول به منصف"[4].

وقد اختلف العلماء في المشار إليه في قوله تعالى: {إِنَّ هَـٰذَا} قال ابن الجوزي رحمه الله: "في المشار إليه أربعة أقوال: أحدها: أنه قوله عزّ وجلّ: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} قاله قتادة. والثاني: هذه السورة، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أنه لم يرد السّورة، ولا ألفاظها بعينها، وإنما أراد أن الفلاح لمن تزكى وذكر اسم ربه فصلى، في الصحف الأولى، كما هو في القرآن، قاله ابن قتيبة. والرابع: أنه من قوله عزّ وجلّ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}، إلى قوله: {وَأَبْقَىٰ} قاله ابن جرير"[5].

ومع أنه لا مانع يمنع من الجمع بين هذه الأقوال؛ في أن اسم الإشارة قد شملها، إلا أن أولى الأقوال بالصواب هو القول الثاني؛ لورود الدليل عليه، فقد روى النسائي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلها في صحف إبراهيم وموسى"[6]، وقد روي هذا الحديث مرفوعا وموقوفا بأسانيد صحيحة، وهذا الترجيح لا يتعارض مع كون اسم الإشارة (هذا) للقريب، فآيات سورة الأعلى قليلة ومتقاربة، فالسورة بمقدار نصف صفحة تقريبا في المصحف، وهي من قصار السور.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أصل من أصول الدين، وهو أن الأصول العامَّة التي جاءت في هذه الشريعة من الأوامر والنواهي والتوحيد وأصول الأخلاق والفضائل، هي عين ما جاء في صحف ابراهيم وموسى، وهي أصول مشتركة بين جميع الشرائع السماوية؛ لكونها تشتمل على مصالح الدنيا والآخرة، والمصلحة فيها ثابتة لا تتبدل ولا تتغير مع مرور الزمان وتغير المكان.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في موطن آخر من القرآن الكريم واحدا من الأصول العامة في الإسلام مما ورد في صحف ابراهيم وموسى، فقال سبحانه: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى، وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى، وَأَنْ

1 محيسن، الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر (ج347/3).
2 انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ج470/5).
3 محيسن، الهادي شرح طيبة النشر (ج348/3).
4 البقاعي، نظم الدرر (ج406/21-407).
5 ابن الجوزي، زاد المسير (ج433/4).
6 [الحاكم: المستدرك على الصحيحين، التفسير/من كتاب قراءات النبي صلى الله عليه تسلم، 258/2، رقم الحديث 2930، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي]. [والنسائي: السنن الكبرى، التفسير/ سورة الأعلى، 333/10، رقم الحديث: 11604].

لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ مَا سَعى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى} [سورة النجم: الآيات 36–41] فانظر إلى الأصل الأول من الأصول العامة المذكورة في الآية الكريمة، فهو مع وروده في صحف إبراهيم وموسى، فقد ورد ذكره أيضا في القرآن الكريم، قال تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} [الأنعام: 164] وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَرْجِعُونَ بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، لَا يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَبِيهِ، وَلَا بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ"[1].

ودين الله سبحانه وتعالى واحد، ولا ريب أن الإسلام هو دين الله في الأرض وفي السماء، وهو الذي جاء به جميع الأنبياء ، قال الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67] وقال عن عيسى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52] وهكذا حال جميع الأنبياء في دعوتهم، وصدق الله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19] فدين الأنبياء واحد، وهو الإسلام، والاختلاف بينهم إنما يكون في الشرائع، مع الاشتراك في الأصول العامة من الشرائع في مسائل الآداب والأخلاق.

وفي الآية الكريمة تعريض بمن آمن بإبراهيم وموسى عليهما السلام، ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإيمانهم بإبراهيم وموسى يستلزم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما جاء به هو عين ما جاء به الأنبياء قبله.

وليس معنى الآية أن سورة الأعلى بألفاظها، أو بعض آياتها بألفاظها، في صحف إبراهيم وموسى، قال ابن عادل في اللباب: "ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما معناه: أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف"[2]. وقال ابن عاشور:" ومعنى الظرفية من قوله: لفي الصحف أن مماثله في المعنى مكتوب في الصحف الأولى"[3].

ومجيء ذكر الصحف مرة ثانية هو من باب ذكر الخاص بعد العام، "وتقدير الآية: إن هذا لفي الصحف الأولى التي منها صحف إبراهيم وموسى"[4]. قال الزحيلي رحمه الله: "وإنما خصت هذه الصحف بالذكر لشهرتها بين العرب، ونظير الآية قوله: ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﭼ [الشعراء: 196][5] .

وسبب تقديم إبراهيم على موسى عليهما السلام في الذكر؛ أنه أقدم في البعثة، فهو إمام الأنبياء وشيخ الحنفاء.

وها هنا مبحث أشار إليه بعض المفسرين، وهو: هل هذه الآية دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية وغيرها من اللغات غير العربية؟ قال النسفي رحمه الله: " {إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى} هذا إشارة إلى قوله قَدْ أَفْلَحَ إلى أبقى أي أن معنى هذا الكلام وأراد في تلك الصحف أو إلى ما في السورة كلها وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة[6]؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة"[7].

والصحيح أنه لا دليل في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية يدل على جواز قراءة القرآن الكريم بغير اللغة التي نزل بها القرآن، بل إن العلماء المختصون مجمعون على أن هذا مما يُذهب بلاغة القرآن ويُخل بنظمه، ومع أن هذا الأمر قد قُتل

1 النسائي، السنن الكبرى، مصدر سابق، كتاب المحاربة، باب: تحريم القتل، 466/3، رقم: 3580.
2 ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (ج287/20).
3 ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج291/30).
4 انظر: الرازي، مفاتيح الغيب (ج137/31). وانظر: الزحيلي، التفسير المنير (ج199/30).
5 المرجع السابق (ج199/30).
6 انظر: الرومي، العناية شرح الهداية (ج284/1). وانظر: القدوري، التجريد (ج471/1).
7 النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (ج632/3).

بحثا، ومن أراد الزيادة فليرجع إلى الكتب والأبحاث التي عنيت بهذا الموضوع[1]، إلا أنه لابد من الإشارة هنا إلى أن في كلام النسفي رحمه الله تعالى ردٌّ عليه؛ وذلك بأنه أقر بأن وجود هذه التعاليم في صحف إبراهيم وموسى كان بالمعنى فقط، فقال: " أي أن معنى هذا الكلام" ثم أكد هذا الأمر بقوله: " مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة".

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع خواتيم سورة الأعلى، وقطف الأحكام الحكيمة والحكم البالغة، لتزكية النفس الإنسانية، وبيان الأحكام الفقهية والعقدية، خَلُصَ الباحث إلى النتائج والتوصيات الآتية:

النتائج:

1- للأساليب البيانية القرآنية تأثير عجيب في تقرير المعنى في النفوس، وفي الترجيح بين الآراء.
2- معظم الأدلة والقرائن تدل على أن معنى التزكي في الآيات الكريمة هو التطهر، وليس زكاة المال.
3- طهارة القلب هي أساس الدين وقبول العمل؛ لأن طهارته تعني البراءة من الشرك والشك والنفاق، مما ينعكس على طهارة الجوارح من المعاصي.
4- الأصول العامة التي جاءت بها هذه الشريعة، من الأوامر والنواهي والتوحيد وأصول الأخلاق، هي عين ما جاء في الشرائع والكتب السماوية السابقة، فهي أصول مشتركة بينها.
5- عدم جواز قراءة القرآن الكريم باللغات الأخرى غير العربية، وخاصة في الصلاة.

التوصيات:

1- أوصي طلبة العلم والباحثين بدراسة السورة جميعها، والتركيز على نهايتها بشكل خاص؛ لما فيها من معانٍ كليِّة أصولية.
2- أوصي العلماء والدعاة بالتركيز في أبحاثهم ودروسهم على أولويات الدين، وأولى الأولويات تزكية القلوب وتطهيرها من الشرك، وبيان الوسائل التي تحافظ على ذلك، فهو أساس الدين.
3- أوصي الباحثين في مجال العقيدة بالتركيز في كتاباتهم ودعوتهم على أن الدين الذي بُعث فيه جميع الأنبياء واحد، وهو دين الإسلام الموافق للفطرة، مما يستدعي من أتباع الأنبياء السابقين قبول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

1 مثل: كتاب الرسالة للإمام الشافعي، وكتاب مناهل العرفان للزرقاني، وكتاب محاضرات في علوم القرآن لغانم قدوري، مبحث: عربية القرآن.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

الأرمي، محمد الأمين بن عبد الله العلوي الهرري الشافعي،2001 م، *حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن*، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط1، بيروت، دار طوق النجاة.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق،2009م، *مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار*، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، ط1، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم.

البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك،1975 م، *سنن الترمذي*، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، ط2، مصر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي،2010 م، *شرح مختصر الطحاوي*، تحقيق: د. عصمت الله عنايت الله محمد وآخرون، ط1، دار البشائر الإسلامية – ودار السراج.

أبو جعفر، احمد بن ابراهيم بن الزبير،1990م، *البرهان في ترتيب سور القرآن*، تحقيق: محمد شعبان، المغرب، وزارة الأوقاف المغربية.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن،1422 ه، *زاد المسير في علم التفسير*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي.

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي،1952م، *الجرح والتعديل*، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه،1990م، *المستدرك على الصحيحين*، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي،1420ه، *البحر المحيط في التفسير*، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم،1415 ه، *لباب التأويل في معاني التنزيل*، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد،1414هـ، *البيان في عدِّ آي القرآن*، تحقيق: غانم قدوري، ط1، الكويت، مركز المخطوطات والتراث.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، *سنن أبي داود*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين،1420 هـ، *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير*، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الرومي، محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين، *العناية شرح الهداية*، دار الفكر.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى، *التفسير المنير*،1418هـ، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار،1995م، *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*، لبنان، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.

ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر الحنبلي الدمشقي النعماني،1998م، *اللباب في علوم الكتاب*، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي،1984م، *التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"*، تونس، الدار التونسية للنشر.

ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد،2002 م، *تفسير جزء عم*، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، ط1، الرياض، دار الثريا للنشر والتوزيع.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن،1422 ه، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية .

القدوري، أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين،2006 م، *التجريد*، تحقيق: أ. د محمد أحمد سراج وأ. د علي جمعة محمد، ط2، القاهرة، دار السلام.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، 1964م، *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية.

الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الحنفي،1986م، *بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع*، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية.

محيسن، محمد محمد محمد سالم،1997م، *الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر*، ط1، بيروت، دار الجيل.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، *المسند الصحيح المختصر*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني،2001م، *السنن الكبرى*، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين،1998م، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، ط1، بيروت، دار الكلم الطيب.